

حتى القبور يا «سين» ... ترفض الاصفاء !

قصة بقلم عروسة النالوفية

أتذكر ياسين الكرسي المقلوبة ؟ ومكنسة يجرها صاحبها هزيلة ؟
لم يفهم من كلامك شيئاً ... كان يحسبك تلقي خطبة الجمعة فيردد
عند آخر كل جملة : « آمين يا رب العالمين » ...
ويقلق الكناس « ياسين » بدوي كراسيه . ومكنسته ... لم
تنجح في الحقد عليه ... كنت تحبه ... وتخجل منه ...
ظننته يبكي وقد رفع منديله يمسح العرق عن أهدابه والتزمست
فاصلا بكائياً مساندة لنواحه الصامت .

خجلت من دموعك ياسين ... القاعة تحولت ماتماً حزينا وتجمع
وريفاتك الامينة ... تنزل ككل مرة من على منصتك .
- صوتك يخفيك .

أحسست بنفسك القشعريرة وأنت تسير في الزقاق المظلم ...
ضمنت محفظتك الى صدرك .. عانقتها طويلاً .. خفت عليها من أشباح
الظلام ، تسرق أفكارك منها .
أسرعت قليلاً ... أسرعت أفكارك معك .

« في هذه المرة لن يسخروا مني ... لن يتركوني أخطب وحدي .
لن ينقلب صوتي الى اجهاش بكائي ... المصدح غراب أسود ... لن
أنعق بعد اليوم ، لن يشفق الكناس على صلمتي ، لن أنزل أمامه
من على المنصة .. لن تكون لي منصة بعد اليوم ..
سأقول كلمتي في الشوارع .. في المقاهي .. في المقابر ... »
تذكرت ياسين أن الأذان الكبيرة جيوبها كبيرة ... تحت المقاهي ،
والجلسة الوثيرة .

واجهت المقاهي تجذبك ... ورائحة القوة « الاكسبريس » تثير
شهوتك ، لكنك ياسين لن تجرؤ ... أزدارك مخضمة ... والنادل
يقفل سترته الأنيقة .

تذكرت النادل ياسين ... كنت تحب القهوة وكانت لديك محفظتك
... وأردت بيعها في لحظة ما ... لكنه سخر منك ... فهقه فسي
وجهك : « لو وضعت فيها صلمتك الكبيرة ما قبلتها مقابل برتقالة
ممصورة » .

لن تدخل المقاهي ... أنت لا تحتل السخريه ... لكن حياتك
معلقة بشفاك ... لن ستقذف كلماتك ؟ ... من يسمعها ...

المارة يمرون ... كل تشده غاياته ... لن يتوقفوا ... وتمنيت
ياسين لو كنت ضوءاً أحمر ... أو حافلة ... أو سيارة اسعاف ...
البرد يهزأ بالأمال ... البرد يجمد أطرافك فتتشعر صلمتك
الملمعة .. أنت تحب صلمتك ياسين ... مررت عليها مندليك النظيف
يدلكها اذا جمدت ... يمسح حمرة خجلها اذا ادممت مسار جلدها
الحساسة .

توقفت ياسين أمام مركز حراس الامن ... الامن مقدس والحارس
اميين .

لمت داخل القبة المصونة فكرة : لو ثررت قليلاً مع هذا الشرطي
المتنصب ؟ ...

تذكرت حية الجاحظ المنتصبه في الصحراء ... على كل ، هو
لن يطردني قبل ان يعرف سبب مجيئي ... حراس الامن لا يطردون ...

مازالت بعض الشعيرات المنفوشة تنتحب على صلمتك الكبيرة
السافرة ... وبعض اهداب تتعثر متسكمة على ضفاف عينيك المكومتين
وعلى لسانك - أتذكر - شجيرات العيون الحلزونية تمنع انزلاق الكلمة
الهدرجينية ..

كان العالم الكبير يخافك يا « سين » .

خفاف صلمتك - لو تعلم - ليتك كنت تعلم .

خفاف وريفاتك فييدي لها الاحترار .

حتى اصابعك المتورمة كبادنجانة مترهلة كانت تفرعهم فيحسبونها
قنبلة من مخلفات الحرب الكونية الثانية ... أو منشآت الحرب الباردة
الآتية .

سامحك الله كم كنت تخفيهم !

* * *

سرت في الزقاق الضيق الوسخ ... تحسست خطواتك بين
اكوام النفايات المروضة في سخاء .. الروائح ياسين مشتبه بسمعتها .
وبهو خياشيمك جسم كل شيء ...

الروائح ياسين تبحث كاسيادها عن مشروع فكرة جريئة تستحم
داخل وعاء التحميص الجائم في ركن ما من أركان الدماغ الكبير .
حملت ككل مرة أوراق خطابك الكبير في محفظتك المصونة ،
فتساءلت كثيراً : كيف وجدتك الأفكار فوجدتها ، كيف قبضت عليك
فقبضت عليها وقيدتها بالحبر الأسود
لا تعرف كيف ياسين .

كل ما تذكره ... خطوط سوداء .. أنيقة على ورق عادي أبيض .
وتذكر عبر الضجيج أنك ابتسمت عندما ألقى خطابك من فوق كرسي
مسلول ، يسعل عند كل حركة منك وسط الفرفة الباردة الجرداء .
كنت ترى ياسين أذانا كبيرة - حاول ان تذكر - كانت اذانا
عريضة كاذان الفيلة .. تتزاحم في غرفتك ... تنسلق الجدران ...
تجوب على الأرض .. تتزحلق على السقف .. تريد الاقتراب مسن
منصتك .

وسائل النصر ياسين ، شراب « الماريجوانا » ، يمتزج بزبد
ريقك اللاهث وراء الكلمات .

الفرفة مركبة أذان ... والهواء يكاد ينتحر .

لم تتم خطابك ياسين ككل مرة ... أرحت جسد الكرسي المبحوح
... فهقه الكرسي ياسين ... حتى اشياؤك تسخر ... لم يعد يشرك
الضحك ...

أردت ان تحمل الأذان الكبيرة في حقيبتك وتزرعها في قاعة
المحاضرات الواسعة ... لا تخف عنك ريفتك ياسين ... ليس عيباً ان
تحلم بخاتم « حبيك لبيك » داخل غرفتك .

لكن الرؤيا تزول حين تلامس رجلاك « جليز » الفرفة البلهاء .

* * *

هي القشعريرة العنيفة تمرق عبر نخاع عظامك ... وتذكر خطبك
السابقة في القاءات العريضة الفارغة ... وصوتك ياسين في المصدح
مخيفاً ... أصداؤه مفزعة تعمر الفراغ ...

هم كرماء يمسون الضيف ...

وتسألت ياسين : فيما يفكر الشرطي ... لو قاطعت تفكيكه
يثور ويفتصب صلعتي ... تراه يفكر في عشيقته الفيتنامية ؟ ...
فهفت ياسين مثلهم طويلا في الظلام ...

نظر اليك الشرطي .

- ماذا تريد ؟ ...

- أن أريك ما في محفظتي ...

- مسروقات ؟ ...

- مسروقات ؟؟ .. هل ترى على وجهي ملامح اللصوص ؟

- ولم لا ... ما دمت تحمل حقيبة متنفخة .. مع .. بدلة زرقاء .

- أو تلك علامات اللصوص ؟ ..

- نعم .. نوع من اللصوص ..

ولكنك لم تكن سارقا ياسين ... اصطدمت صلعتك بالتهمة
فكادت تنترفز لولا منديك .

ابتسمت وعانقت صلعتك

فهقه الشرطي في تكاسل :

- آه فهمت ... أنت من أولئك الذين . اعانك « باخوسي » على

مصابك . وانصفق الباب أمامك .

وجبت ياسين . لم تقل له انك ... انه ... يشرب بصفاق

« النبلاء » ... ويتفنن من مشاريع وعودهم ... لم تقل له ان الجريفة

قد تكون غير القتل العادي

لم تستطع قول هذا « ياسين » كنت تخاف « المنتهي » وتخاف

الامن والامانة ونعاس المؤمنين .

واصلت سيرك ... وخطواتك ضبطنها توازي سياج القبسرة .

توقفت لتنظر المدينة المسلمة ، المستسلمة ، المسالمة ...

فكرت ياسين : لا فرق بين مدن المسلمين ... وتذكرت ان مدينتك

رقعة شطرنج كبيرة تموت فيها البيادق دون ان تتحرك ...

وتنهت ياسين ... تذكرت انك حتى بين القبور ... تذكرت

ان نبلاء جهتك يملخون صناديق الافيون للتساء دون مقابل والتساء

يدخنونه في القاعات العامة وفي النوادي المفتوحة . وسملت ياسين

مرارا من رائحة سجائر الافيون ، وكنت لا تدخن لانك تريد ان تلقى

كلمتك في مكان ما ، وكنت تريد ان تبدد سجائر الدخان الماريجواني .

دخلت المقبرة ياسين ... كان لا بد ان تتكلم ... وكان لا بد ان

يسمعه انسان ... عليك ان تختار بين موتى الافيون وموتى الموت .

همست ياسين داخل ذاتك : لماذا ارتقب الناس والفرص ؟ .. لماذا

لا اخلقها ... وتذكرت انك لست موسى تشق البحر بعصاه ...

وتذكرت انك في منطق « النبلاء » نبات طفيلي سام تقتلع صلعتك ، لتلقى

كرة جذابة في ملعب كرة القدم .

افزعتك الصورة ياسين ... وجدت نفسك مرة أخرى بين القبور

مساكن شعبية متلاصقة ... مجتمع بلا طوابق ولا سلالم .

اعتليت « ياسين » كومة من التراب ... أحسست انك تشرف

على العالم ، تقبض عليه بفكرتك ، تخجله باستقامة هامتك ، تتحداه

بعروق دمك النابضة .

وتصورت ركب النبلاء يتوقف امامك ... سيسخرون منك

سيقولون عنك : سخيف ... معتوه ... لا يهم ياسين أنت تدرك انهم

يخافون دماغك يرهون مشاريعك ، ويشترون من أجل ذلك صناديق

الافيون للتساء ويفتحون امامك القاعات العريضة الفارغة ...

سيطاردونك ياسين ... لكنك لا تخاف المطاردة .. ليست لك

عشيقة ولا قصر الحمراء ...

نداء النساء ياسين تسمعه غير ناسهم ... لم تفرك سمعادة

نظراتهم النათية ... لن تخدعك نشوتهم وسط الدخان ...

* * *

انت ياسين في المقبرة ... والوضع شاذ ... وكلمتك ستقولها

... نظرت تجاه القبور ... فتحت محفظتك ... أخرجت منها أوراقك

البيضاء المكتوبة ...

ارتجفت قليلا ياسين ... لكن كلماتك أقوى من الخوف ... كان

كلامك بلا مقدمة ولا حواشي ...

« سنتظرون طويلا ... لن تشهدوا فصول المسرحية ... لن يرفع

الستار ستبقون مشهودين الى الرشح الفارغ ... لن يبرز المثلون ...

فالمثلون من ورائكم مقنعون يفرجون في مسرح الدمى المتحركة ... »

ولم تتم كلامك ياسين كلل مرة ... كانت الرائحة الكريهة تلف

لسانك ... تخنق لهائك ... تعبت بشعيرات خياشيمك .. أحسست

انك تنهار ... وجماجم المدينة تتراقص حنوك في دورة مجنونة مضحكة .

مسيلة للدموع ..

وكنت تريد استئصال العفونة من التربة السمراء ... صفطت على

اوراقك ، لم تكن قادرا على درء القذارة ... فكرت في حمل رفش

وممول . وبعض المواد الكيماوية البيدة للعفونة قصدت المقبرة ياسين

... بعثت بخياشيمك كلاب البوليس تبحث عن مكن المؤامرة .

بدأت الحفر في القبر المشبوه فيه ... الرائحة غير محتمة ...

وضعت منديلا على أنفك ... كنت مؤمنا بحفرياتك ... وصلعتك

تبارك أعمال الحفر ياسين

حفرت طويلا ... والانهاك لا يهزم ... جلست على كومة التراب

... كنت تجرم ... اجرامك بطولة .. ابتسمت .. أدخلت يديك في

جيوبك ... في فهمك احساس يقضم التراب يسحق ارادة الكسالم

لديك .

الحفر صعب ياسين ... ودرء النتونة اصعب ...

الديدان تزحف رخوة كالارادة المشلولة ... تلمع في تنبها تحت

اشعة النجوم الباهتة ... تتناسل في زحفها الدائب ... مشهد فظيع

للتناسل المريض .

الخناس تسارع ... تتصارع ... تنصرع مذعورة ... عسلى

راسها عناقيد المحاجم اللزجة ... الدوائر الحلزونية كلمنة الصدور

المسلولة .

عالم صغير ... يتحرك في رطوبته المنعفة ... تعثر حشرات

في لعابها الزقق بالخضرة والسواد .

أحسست بزحف حشرة ما داخل بنظونك ياسين ... نجمدت

اعصابك ... أحسست بالهوت البارد ... كانت تزحف الى فخسلك

وكنتم تموت شيئا فشيئا .

العناقيد اللزجة تنسج بلعابها رمشا تمشي عليه الى المدينة

المهجورة . الزحف متواصل . شعور بالقيء يسيل على فخسلك

الايسر

تفزت ياسين ... ضغطت بيدك على بنظونك تمنع انجراف

التربة الصالحة ... دمك ياسين يتجمد في ساقك اليسرى .

الريح ما زالت تحمل روائح العفونة ... ومواد الكيماوية

ياسين بعثرتها في تربة القبر القذر ... تحسست من جديد جوانب

القبر المفتوح . أحسست بثقب جانبي لم تتفطن اليه ... كان يلفظ

القاذورات ... صلعتك تتحدى الظلام ..

واصلت الحفر ... اعصابك تتميزق .. أنت تؤمن بالحفر ياسين

... والتراب لا يؤمن بممولك ... اكتشفت الثقب الآخر المشرف على

القبر الثالث ارتجت صلعتك ... تواطؤ فظيع ياسين ... الجماجم

تتنفس نفس الحشيش ، والعفونة تخدر المدينة الشعبية .

اصطدمت رجلاك بحقة « ساردينة » وتمثرت وتبعثرت ... تجاوزت

الالم ياسين ... خلفت فطرة دم سوداء على الرصيف .

كان الليل ليلا . وكنت ياسين سينا . وكانت رجلك تؤلك . توقفت

امام محل جريدتك ... ستقتني جريدة الفد قبل الفد ... وستعرف عنوان

المسرحية الجديدة وسيذهب الناس للمشاهدة ... لن تمنعهم

ياسين « فالاسمار شعبية اسعار خاصة بالطلبة والجيش »

عروسية النالوتي